ثلاثيّة: الطّبيعة والإنسان والتكنولوجيا

(في ضوء فلسفة التّضامر)

مدخل:

يرى كثيرون أنَّ الابتكار هو نتاج العقل الإنسانيِّ والموادّ الطبيعيَّة، فهو لا شيء غيرهما؛ وذلك لكونه إيجاد من موجود، فهو أشبه ما يكون بتحوّل المادّة إلى طاقة؛ وعليه لا يمتنع علينا تصوّره على أنَّه ليس شيئًا آخر غير من أنتجه. ومن جهةٍ ثانية يرى آخرون أنَّ الإنسان من حيثُ ماديّته هو نتاج الطبيعة. أي أن المواد الّتي يتكوَّن منها الإنسان هي من جنس المواد الطبيعيَّة، وليس العقل أو الوعي بحسب بعض علماء الطَّبيعة إلَّا عبارة عن جسيمات تتفاعل فيما بينها، وقد عبَّر عن هذا المعنى أحد أهمّ علماء الأحياء في القرن التَّاسع عشر "توماس هـ. هكسلي" بقوله: «الأفكار الّتي أُعبِّر عنها بالنّطق إنَّما هي عبارة عن تغيّرات جزيئيّة» [1]. وهذا يعني أنَّ العقل ليس إلَّا شكلًا من الأشكال المنبثقة من المادَّة. ووفقًا لهذه الدَّلالة (الرّؤية) فالإنسان ليس شيئًا آخر غير الطَّبيعة، أو لنقل هو شكل من أشكال الطَّبيعة؛ وبالنَّتيجة فالإنسان للطَّبيعة كالتكنولوجيا للإنسان. وفي المقابل هناك من يرى أنّ (الطّبيعة، الإنسان، التكنلوجيا) ثلاثة أشياء مُتمايزة عن بعضها بعضًا، لكلّ منها استقلاليته الخاصّة به، وإن كانت طبيعة المواد المكوّنة لها نفسها، إلّا أنّنا نجد في الإنسان ما لا نجده في الطّبيعة والتكنولوجيا كالوعي الذّاتي مثلًا، كما نجد في التكنولوجيا ما لا نجده فيهما كالنّظام الآلي الدّقيق الّذي لا يرقى للخطأ الا بمؤثر خارجي.

فما طبيعة العلاقة لهذه الثّلاثيّة، هل من المنطقي بعد هذا القول إنّ مَثل التكنولوجيا للإنسان كمثل الإنسان للطّبيعة من حيثُ التّكوين وقابلية التّكوين؟ وكيف يُمكن فهمها من منظور فلسفة التّضامر؟ في هذا المقال سنُحاول مناقشة ذلك وتبيانه بما يتّسع له المقام.

الأصلُ: المراتب وتضامرها

الطّبيعة والإنسان والتكنولوجيا هي عبارة عن ثلاث مراتب من المراتب الخمس الّتي يقول بها التّضامر ويصنّف وفقًا لها كلّ شيء من النّاحيتين: الوجودية (أنطولوجيا) والمعرفية (أبستمولوجيا)، والمرتبتان الأخريتان هما: مرتبة الألوهيّة ومرتبة النّصوص الرّوحية. والشّكل المرفق يبين شكل التّرابط فيما بينها.

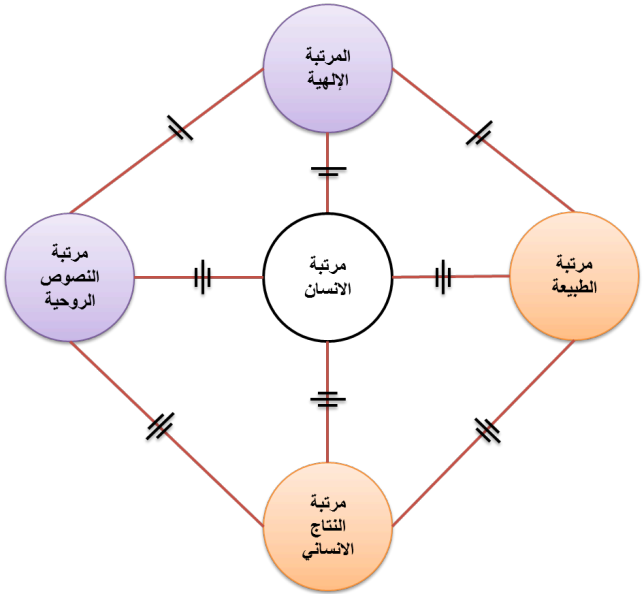

وكما واضح من الشّكل: فإن الإنسان له مركزيّة مميزة بين المراتب الأربع الأخرى، ولا شكّ في ذلك؛ إذ لولا أنّا كنّا على ما نحن عليه الآن من الوعي لما كان للمعرفة الّتي نبحث فيها من معنى مظهر، بل لبقيت مضمرة على ما هي عليه، ونحن نستطيع أن نتصوّر مثل ذلك الكمّ الهائل من المعلوماتِ الّتي لم نحط بها في الكون، إذ ومع وجودها واشتمالها على معلومات في ذاتها إلّا أنّ تلك المعلومات لا قيمة معرفيّة لها من دون ذات واعية تُدركها وتعمل على التّعامل معها.

وممّا يُلاحظ في الشّكل أيضًا وجود الرّمز (1|1) بين الطّبيعة والإنسان والتكنولوجيا، وهو رمز ما نسميه (التّضامر اللّاذاتي العكوس) ومعناه أن كلّ مرتبة تضمر المرتبة الأخرى كما أنّ المرتبة الأخرى تضمرها أيضًا، ومعنى هذه الفكرة هو أنّ المراتب الثلاث عبارة عن حقيقة واحدة بدلالة مُعيّنة، ومثل وحدتها في الحقيقة كمثل وحدة المادَّة والطَّاقة. وفي الوقت نفسه هي وبدلالة أخرى عبارة عن ثلاثة أشياء مُختلفة لا متماثلة. لا أقول: متناقضة لأنَّ وجود أحدها لا يلزم معه نقض وجود الآخر، ولهذا أصفها باللّاتماثل.

وبتعبير آخر: لو نظرنا للطّبيعة والإنسان والتكنولوجيا من حيثُ المكوّنات الماديّة لرأينا أنّ العناصر الكيميائية والآليات الفيزيائيّة مشتركة بينهما، فيبدو الثّلاثة من حيثُ هذه الدّلالة وكأنّها مكوّنات متعدّدة لحقيقة واحدة؛ لكن عندما نُعيد النّظر من جانب آخر نجد أنّ كلّ واحد منها شيء مختلف عن الآخر تمامًا، والتّصوّر المُعبّر عن هذا الجمع والتفرقة في الوقت نفسه نُطلق عليهم اسم (التّضامر).

لتوضيح المفهوم أكثر نضرب عادة مثال التّناظر بين النّاس، فلو نظرنا باعتبار مُعيّن لقلنا إنّ أيّ إنسان هو مثل غيره من النّاس؛ لكن لو نظرنا باعتبار آخر فإنّنا لا بدّ من أن نقول إنّ كلّ انسان يختلف عن كلّ ما سواه. ووجهة نظرنا أنّ الأصح هو أخذ الفكرتين معًا في كفّة تكامليّة واحدة دون تمييز أو تفضيل بين اللّامتماثلات.

من هنا وبناءً على هذه الفكرة استنتجنا بأنَّ الطَّبيعة بدلالة المرتبة تضمر الإنسان والتكنولوجيا. والفكرة ذاتها تنطبق على الإنسان الّذي يضمر الطَّبيعة والتكنولوجيا، وعلى التكنولوجيا الّتي تضمر الطَّبيعة والإنسان.

تضامر المراتب الثّلاث بدلالة التّطوّر

لكي تتكشّف طبيعة العلاقة المضمرة بين هذه المراتب، علينا أن نأخذ دلالة مُحدّدة من بينها، وأن نُعمل أدوات التّضامر فيها لكي نصل إلى مقصدنا في التبيان، ولقد رأينا أنّ أوضح دلالة يُمكن استخدامها هي فكرة التطوّر في الطّبيعة، إذ لما كنّا نعلم أنّ الطّبيعة تتطوّر، فما الّذي قد يضمره هذا التطوّر بالنسبة لمرتبتَي الإنسان والتكنولوجيا؟

الجواب:

لمَّا افترضنا أنَّ الطبيعة تتطوّر. ولنفترض أنَّه بصيغة (س)

ولمَّا كانت الطبيعة تضمر لا مثيلها (الإنسان والتكنلوجيا) بدلالة التطوّر (المبدأ)

فهذا يعني أنَّ الوعي الإنسانيّ يتطوَّر بصيغة (سَ)

وبالمثل، فإنَّ الابتكار العلميّ يتطوّر بصيغة (سً).

وذلك حسب (قانون تضامر الوجود)، وما هو هذا القانون؟

هو القانون الأوّل من قوانين التّضامر الثّلاثة، وهو ينصّ على:

> [إذا وُجدَ شيءٌ في إحدى مرتبتَين لا متماثلتَين، فإنَّهُ يضمر وجود نظيره في المرتبة الأخرى، بدلالةٍ محدّدة].

بمعنى: أنّه ما دامت الطّبيعة تتطوّر وهي مرتبة، فهذا يدلّ على أنّ الإنسان والتكنولوجيا يتطوّران أيضًا؛ لكن التطوّر في كلّ مرتبة يتناسب وطبيعة مرتبته أو خصائصها الذّاتية، فإذا كانت القيمة البيولوجيّة مثلًا هي المميز لمرتبة الطّبيعة، فإنّ الوعي هو المميّز لمرتبة الإنسان، مقابل التقنية المُميّزة لمرتبة التكنولوجيا.

إنّ قراءتنا للتّقابل في التطوّر بين المراتب الثلاث مُتأتية من حيثيّة هذه المراتب متضامرة، ومعنى إنّها متضامرة هو أنّها في لحظة ما نُسمّيها (اللّحظة اللّازمانيَّة) هُي شيء واحد، والشَّيء الواحد لا يكون غير نفسه، وهذا يعني أنَّ التأثّر متناظر لهم كلّ حسب مرتبته.

فلو نظرنا إلى التطوَّر التكنولوجيّ في النِّصف الأخير من القرن العشرين لرأينا أنَّه أخذ يتسارع بطريقة مطّردة، فلم يَعد بالبطيء الّذي كان عليه في القُّرون السَّابقة. ولنفترض أنَّ وتيرة تسارع التطوَّر كانت بزيادة 40% (نسبة افتراضيَّة)، إذًا فيعني أنَّ الوعي الإنسانيّ قد تطوّر بنسبة 40% أيضًا، وكذلك يعني أنَّ سرعة التطوّر في الطَّبيعة زادت بهذه النّسبة.

وكلّ ما علينا لإثبات مدى دقّة هذه التوقّعات عمل دراسة مُختصَّة تتعلَّق بالمعايير الّتي نستطيع بواسطتها تحديد وتيرة، أو نمط التَّسارع في التطوّر ضمن محدّدات معيّنة، لكلّ من التكنولوجيا والتَّفكير الإنسانيّ والطَّبيعة، آخذين بعين الاهتمام الصُّورة الأشمل أو الأعم، ثمّ نُقارن لنختبر هذا القانون، فهذا من شأنه أن يُحقّق لنا إنْ تبيّن أنّ النّسب متطابقة أو في الأقلّ متقاربة جدًّا أسسًا للتَّفكير التَّشاركيّ، تفكير يضع ثلاثيَّة (الطّبيعة الإنسان التكنولوجيا) في نقطةٍ مركزيَّة واحدة؛ ليستفيد مستقبلًا ممَّا يعرفه من إحداها لمصلحة المرتبتَين الأخريَين.

إنَّ القراءة ثلاثيَّة الأوجه هذه من شأنها أن تُمهِّد لأنماط تفكير تتَّسم بالانفتاح الّذي يتناسب مع عصرٍ بات فيه العالم شاشة صغيرة بفعل الفضائيَّات ومواقع التَّواصل الاجتماعيّ وتكنولوجيا المعلومات، هذا فضلًا عن إرهاصات لتقنيات المستقبل الّتي ستذلّل المسافات الزمانيَّة والمكانيَّة أكثر وأكثر. إنَّ العالم يتقارب بصورةٍ مُطّردة، ومن الطبيعيّ أن تنبثق رؤى وفلسفات تواكب ما يحصل؛ لهذا فإنَّ قراءة العلاقة بين الطَّبيعة والإنسان والتكنولوجيا، وفق مفاهيم التّضامر من شأنها أن تكون خطوة أو ربَّما أقلّ من ذلك في هذا الطَّريق الطّويل.

ولتتّضح الصّورة أكثر؛ سنتطرَّق لجانب آخر ممَّا يُمكن الاستفادة منه وفق هذه النَّظرة، وهو ما نُسمِّيه **"التأثّر والتغيير"**.

كما نعلم فإنَّ التكنولوجيا هي نتاج الإنسان، هو يخلُقها إذا جاز التعبير فهو المؤثِّر الأوّل فيها؛ لكنَّه بعد أن يفعل يتأثَّر فيها، وقد لمس علماء الاجتماع والنّفس وغيرهم هذه التّأثيرات في سلوكه، وطريقة تفكيره، وحياته، وعاداته، فالتكنولوجيا الّتي تُبتكر لأجل تسهيل مهامّ الحياة، لا تؤدِّي تلك المهامّ فحسب، بل تسهم في تغيّر طبيعة الإنسان السيكولوجيَّة، وقد تصل تأثيراتها عند بعضهم إلى النّاحية البيولوجيَّة أيضًا، هذا فضلًا عن النَّاحية الاجتماعيَّة الّتي رَصدت فيها الأبحاث أنّ قضاء النّاس أوقاتًا طويلة أمام التلفاز أو أجهزة الكمبيوتر زاد من درجة عزلتهم عن الاتصال بالمُجتمع الواقعيّ، كالجيران أو الأقارب، وامتدَّ الأمر إلى العائلة نفسها، فضلًا عن حالاتِ الاكتئاب الّتي رصدها علماء النَّفس.

بالطريقة نفسها نستطيع أن نقول: إنَّ الإنسان نفسه هو نتاج الطَّبيعة، وهو متأثِّر فيها من حيثُ التَّكوين؛ لكنَّه بتغيّره الكبير في الجوانب الّتي أشرنا إليها، فإنَّه يؤثِّر في الطَّبيعة. كما أنَّ الإنسان يتأثَّر في التكنولوجيا ويتغيّر فإنَّ من المفترض نظريًّا القول إنَّ الطبيعة تتأثَّر فيه وتتغيّر أيضًا، ونحن هنا لا نتحدَّث عن المستوى المباشر لما يفعله الإنسان من تلويث البيئة بالغازات والنِّفايات والتسبُّب بانقراض عشرات وربّما مئات من الكائنات الحيَّة، بل نشير إلى التأثّر التطوّريّ؛ بمعنى أنَّ الطَّبيعة إذا كانت سائرة في خطٍّ مُعيّن للتطوّر، فإنَّه وبتأثير تغيّر الإنسان المفاجئ والسريع نسبيًّا، فإنَّ هذا يُسهم في تغيير وتيرة تطوّر الطبيعة للتَّوائم مع هذا الواقع.

هيمنت الدّيناصورات على مملكة الحياة في الأرض حوالي 160 مليون سنة، قبل أن تُعرَّض الغالبيَّة العظمى منها للانقراض في حادث تختلف حوله نظريَّات العلماء، أبرزها أنَّ كويكبًا ضرب الأرض وأدَّى إلى تلك الكارثة. ما الّذي حصل بعد ذلك الحدث الكوكبيِّ المروِّع؟ عادت الطّبيعة ورتّبت أوراقها وأنتجت الحياة من جديد، وما يظهر أن نسق هذه الحياة يختلف عن نسقها في عصر الدِّيناصورات؛ وذلك لأنَّ المقدِّمات البيولوجيَّة الّتي أدَّت إلى ظهور الديناصورات تختلف عنها فيما بعد الانقراض.

ما نرمي إليه هنا هو أنّ الطَّبيعة كما تؤثّر في الخلق فهي تتأثَّر في ما تخلق. لم تبدأ من الصِّفر، بل من حيثُ انتهت فكوَّنت أحياء جديدة.

وربَّما يكون العزاء في أنَّ الطَّبيعة أنتجت في أماكن كان العلماء قد تأكَّدوا من إحصاء الكائنات الحيَّة فيها، أنتجت زهاء عشرة ملايين مخلوق جديد، لا تزال غير مصنّفة وهي قيد الدِّراسة، وما صُنّف منها يكشف عن أنّ تطوّرًا سريعًا حصل بطريقة تتناسب مع الأضرار البيئيَّة النَّاجمة في الأرض.

ولعلَّ أفضل مثال يمكن أن يُشار إليه هنا هو الاكتشاف الفريد الّذي يرى بعضهم أنَّه قد يعيد تعديل مناهج العلوم حول تعريف عناصر الحياة فما فوق، فقد أعلنت وكالة الفضاء الأمريكيّة ناسا عام 2009م، أنَّها عثرت على شكل جديد للحياة في أعماق بحيرة سامَّة، يتمثَّل في بكتيريا قادرة على النّمو من الزَّرنيخ بل وتحويل سمومه إلى بروتين. وتلك البحيرة هي بحيرة" مونوليك" بولاية كاليفورنيا، وقد تأكّد لدى الباحثِين أنَّ هذه البكتيريا

تستطيع التغذّي على عنصر الزّرنيخ المعدنيّ السَّام، وأكدوا أنَّها تحوّله بدلًا من الفوسفور إلى دهون وبروتينات، بل وإلى جينات وراثيَّة لها. وشرح البروفسور آرييلإنبر من وكالة "ناسا" أهميَّة الاكتشاف قائلًا: "الجديد هنا هو أنَّ الزّرنيخ يُستخدم كمادة مكوّنة لبناءِ الكائن الحيّ".

يُعيد هذا الاكتشاف النَّظر فيما يعدّه العلم عناصر أساسيَّة لنموّ الحياة، وهي الكربون، والهيدروجين، والآزوت، والأوكسجين، والفوسفور، والكبريت. كما يظهر هذا الاكتشاف الّذي نُشرت نتائجه في مجلة "ساينس" العلميَّة الأمريكيَّة، أنَّ واحدة من أشهر السُّموم على الأرض يُمكن أن تكون غذاءً لبعض الكائنات.

وفي أعقاب الكشف الجديد قال "جيمس إليسر" الأستاذ في جامعة ولاية أريزونا والخبير البيئيّ في تطوّر الأنواع، والمتخصّص في مادَّة الفوسفور: "إنَّ هذا الاكتشاف "صدمة كبيرة" بسبب اعتماد البكتيريا على الزَّرنيخ عوضًا عن الفوسفور". وأوضح أنّ نتائج الدّراسة ستتطلَّب إدخال تغييرات على الكتب العلميَّة. كما يظهر مدى ضآلة ما يعرفه العلماء عن تنوّع أشكال الحياة على الأرض، وقد يوسّع بدرجة كبيرة نطاق بحثهم عن أيِّ أشكال أخرى للحياة على الكواكب والأقمار.

ولنا أن نسأل، هل فعلًا أنَّ المسألة متعلِّقة بضآلة ما يعرفه الإنسان عن الطّبيعة كما ذهب بعضهم؟ أم أنَّ تطوّرًا جديدًا ظهر؟ ربَّما يكون بذرة أولى لكائنات قادرة على التكيُّف مع أنواع مختلفة من السُّموم. نحن حين نطرح هذا التَّساؤل، فإنَّنا نستحضر في ذهننا قضيّة أنَّ جميع ما نراه من كائناتٍ حيَّة متطوِّرة ابتدأت حسب النظريَّات المعرّفة من خلايا أوليَّة بسيطة، فهل تُنبِّئ هذه البكتيريا عن بداية أخرى تشبه البداية الأولى؟

إنَّنا في سياق نظرتنا، نرى أنَّ الدِّراسات والأبحاث الّتي نقترحها إذا ما تمكَّنت من اكتشاف مدى تأثير التكنولوجيا في حياة الإنسان وتغييرها إيَّاه، وتمكَّنت من وضع المعايير العلميَّة لذلك؛ فسوف نتمكَّن من استخدام تلك المعايير لمعرفة مدى تأثير الإنسان في الطَّبيعة، وكيف تغيَّرت أو ستتغيَّر.

وإذا تمكَّنا من معرفة طريقة السّيطرة على التغيّرات الّتي تُحدثها التكنولوجيا فينا، فسوف نتنبَّأ بالطَّريقة الّتي ستتغلَّب فيها الطَّبيعة على ذلك.

وماذا إنْ لم نستطع السّيطرة وسارتْ بنا التكنولوجيا إلى الحدودِ القصوى الّتي نتجاهل فيها المعايير الأخلاقيَّة في أدنى صورها؟ هذا ينبِّئنا بأنَّ الطَّبيعة سائرة في طريق يُناظر طريقنا، وأنَّها بالمثل على وشك تفقِّد توازنها.

وبالمقابل، لو استُحدثت فروع علميَّة تتساوق مع هذه النّظرة، وتلك الفروع تحرَّكت لتحاول استكشاف ردود أفعال الطّبيعة تجاه تأثيرات الإنسان فيها الايجابيَّة والسِّلبيَّة ولنفترض أنَّ هؤلاء العلماء تمكّنوا من التقاط النمط الّذي يتكرَّر في الأرض كردِّ فعل لتلك التأثيرات، واكتشفوا أنَّ الطبيعة وجدت سُبلًا لتجاوز الكوارث البيئيَّة المحتملة؛ فإنَّ ذلك سينبّئ بأنَّ المشكلات الّتي نجمت عن التطوّر التكنولوجيّ لها مخرج، وسيكون نظير المسلك الّذي سارت الطّبيعة فيه.

قد تبدو المقاربة الّتي نتحدَّث عنها غير مألوفة لكن يمكن تلمّسها عند التمعّن سواء ما

بين الإنسان والتكنولوجيا من جهة، والإنسان والطّبيعة من جهةٍ أخرى، في التّناظرات الكثيرة، ومنها على سبيل المثال:

أنَّ طريقة تفكير جميع الدّول النوويَّة تتلخَّص في أنَّه لمواجهة ما يتهدَّد الدَّولة من دمارٍ نوويّ، فإنَّها تمضي لبناء قوّة ردع ضخمة، وأنظمة دفاع فعَّالة ضد القذائف ذاتيَّة الاندفاع. وهذا يحفِّز على ابتكار أنظمة اختراق أقوى، لتُعاد الكرّة في البحثِ عن منظومة دفاع مناسبة، حتّى بات المخزون النووّي يقدَّر بمئات الآلاف من القنابل وصلت قوّة معظمها من 10 100 ضعف قوّة القنبلتَين اللّتَين دمَّرتا هيروشيما وناكزاكي. وفي تقارير نُشرت ذُكر فيها أنَّ التَّرسانة المخزونة الاستراتيجيَّة لكلٍّ من الولايات المتّحدة الأمريكيّة والاتِّحاد السوفيتيّ السَّابق فقط، تحمل من القوّة التفجيريَّة ما إذا وُزِّعت على شكل قنابل بالحجم الّذي ضرب هيروشيما، لأمكن أنْ ينسف هيروشيما مرَّة كلّ ساعة لمدّة 87 عام.

هذا النَّمط من التَّفكير الّذي يستندُ إلى التطوُّر التكنولوجي المتقابل، نرى نظيره في الطَّبيعة بما يصطلح على تسميته بالتَّطوُّر المشترك، ومثال ذلك هو إنتاج سمندل الماء خشن الجلد سُمًّا معينًّا لحماية نفسه من الأفعى المقلّمة، الّتي طوَّرت مقاومة ذلك السمّ بحيث لا يؤثِّر فيها، فما كان من السّمندل إلّا أن طوّر ذلك السمّ، وأدّى سباق التسلُّح التطوّري في هذا الزَّوج المؤلَّف من فريسةٍ ومفترِس لإنتاج مستويات عالية من السمِّ في السمندل، وبالمقابل صاحَبَه تطوّر مستويات عالية من مقاومة السمّ في الأفعى [1].

إنَّ التَّناظرات بين المراتب اللّامتماثلة هي من الكثرة بحيث يمكن عدّها قانونًا أساسيًّا يجب اكتشافه والاستفادة من تطبيقاته.

لنأخذ على سبيل المثال طريقة تعاملنا كمجتمعاتٍ إنسانيَّة مع مشكلة التفجُّر السكانيّ المتضخِّم، للسَّيطرة على ذلك نُشيع ثقافة تحديد النَّسل مستخدمِين الوسائل الممكنة كافَّة.

هنا وفقًا لنظرتنا علينا أن نتوقَّف لنسأل: هل واجهت الطَّبيعة مثل هذه المشكلة بالتَّضخُّم لكائن حيّ على حساب غيره من الكائنات؟ وإنْ حصل ذلك، فما السُبل الّتي تعاملت بها معه؟ هل يُمكن استنباط آليَّات تعتمد على التكنولوجيا تناظر طريقة الطَّبيعة في التَّعامل مع تلك المشكلة؟ أظنُّ أنَّ الحلَّ الّذي سنحصل عليه سيكون الآمن والأكثر مواءمة مع طبيعتنا، والطَّبيعة الّتي نعيش فيها.

ما الّذي نرمي إليه من كلّ ذلك؟ هل نرمي إلى تجاهل أفكارنا والاعتماد على ما نراه في الطَّبيعة؟

فلسفيًّا، الأمر ليس كذلك إطلاقًا، فحسب قانون تضامر الوجود فإنَّ الاعتماد على أحد عناصر ثلاثيّة (الطّبيعة، والإنسان، والتكنولوجيا) لا يعطي حلولًا استراتيجيَّة بعيدة المدى، بل حلولًا وقتيَّة نسبيًّا، وهي تتَّسم بالنَّظرة الأنانيَّة الّتي تصبّ في منفعة أمم بعينها على حساب بقيّة الأمم. هي حلول قارّية لا كوكبيَّة. وما يقترحه هذا القانون هو ارتداء النظّارة الّتي تمكّننا من أن نرى الرّوابط الخفيَّة بين هذه الثلاثيَّة، فهذا من شأنه أن يُحرِّر دائرة الإطار المعرفيِّ بحيث تصبح نهاياته مفتوحة على جميع الاحتمالات الممكنة فيما بينها.

وفي لمحة عجلى قبل أن أنهي حديثي هنا، أودّ أن أذكر مثالًا ممَّا يتنبَّأ به قانون تضامر الوجود، إذ لمَّا تمكَّن الإنسان من ابتكار صواريخ ومركبات قادرة على اختراق

الغلاف الجويّ إلى الفضاء الخارجيّ.

ولمَّا كنَّا نعلم أنَّه لا يوجد كائن حيّ في الطّبيعة يستطيع أن يفعل ذلك، أي اختراق الغلاف الجويّ والقدرة على الحياة خارجه.

ولمَّا كان قانون تضامر الوجود ينصُّ على [**أنَّ وجود شيء في إحدى مرتبتَين لا متماثلتَين يضمر وجود نظيره في المرتبة الأخرى بدلالة محدّدة**].

فإنَّ ذلك يدلُّ وحسْب القانون على أحد أمرين على أقل تقدير وهما:

إمَّا أنَّه توجد كائنات حيَّة في الفضاء الخارجيّ ولو بكتيريا قادرة على التكيُّف مع الفضائيين الدَّاخليّ والخارجيّ للكواكب.

وإما أنَّ الطَّبيعة في كوكبنا ستخلق هذا الكائن الّذي يتمكَّن من فعل ذلك، هذا إذا لم يكن موجودًا بالفعل؛ لكنَّه غير مكتشَفٍ بعد.

أتمنَّى أنْ يسعفنا الحظّ فنسعد بالإعلان عن هذا الاكتشاف فيما تبقّى لنا من زمان في أعمارنا. فنكون شاهدِين على حدثَين مهمَّين، حدث طبيعيّ غير تقليديّ، وحدث البرهنة الواقعيَّة الملموسة على هذا القانون الّذي انبثق من النَّظر الفلسفيّ.

إنَّ هذا القانون يوصلنا إلى نتيجةٍ مهمَّة وهي:

"كلّ ما يستطيع الإنسان فعله تكنولوجيًّا تستطيع الطَّبيعة فعله عضويًّا، وبالعكس".

ولا تكتفي النَّظريَّة بالتوقُّع من طريق قانون تضامر الوجود، بل هي ومن طريق قانون تضامر المعرفة تستطيع أن تتنبَّأ بملامح ما سيوجد، بل وربّما بالإمكان توقُّع التَّفاصيل الدَّقيقة، حسب قدرة المتخصّص في هذا المجال. وقانون تضامر المعرفة، هو القانون الثَّاني من قوانين التّضامر وهو ينصُّ على:

[**إذا وُجد َشيء في إحدى مرتبتَين لا مُتماثلتَين بينهما دلالة محدَّدة؛ فإنَّ معلوم إحداهما يكشفُ تضامريًّا مجهولاً لأخرى**].

وما لدينا هنا هو المعطيات الآتية:

1. مرتبتا الطَّبيعة والتكنولوجيا.
2. الدَّلالة المحدّدة وهي المركَّبات الفضائيَّة المأهولة.

والمطلوب: معرفة مجهول الطَّبيعة من معلوم الابتكار التكنولوجيّ.

العمل:

نرمزُ للطَّبيعة بالرَّمز (أ) ولمرتبة التكنولوجيا (ب)

حسب تسلسل المراتب في الوجود فإنَّ الطَّبيعة سابقة وجوديًّا للتكنولوجيا.

وحسب جدول قواعد الاستدلال المشتقّة من القانون، فإنَّ القراءة تُعطينا أنَّ قاعدة الاستدلال رقم (3) هي المعنيّة برسم تصوّرنا عن ملامح الكائن الحيّ الّذي من المتوقّع أن

يُكتَشف.

تُترجم رموز هذه القاعدة بالشّكل القائ

جدول قواعد الاستدلال

ت	نوع المجال	ت	قواعد الاستدلال	
5	[الطّبيعة ← التكنولوجيا]	1	ع أ ‡ ع ب ← د أ ، د ب	طردي
		2	ع أ ‡ ج ب ← د أ ، د ب	طردي
		3	**ج أ ‡ ع ب ← د أ ، د ب**	**عكسي**

معلوم (ب) يكشف تضامريًّا من حيثُ التَّناسب العكسيّ مجهول (أ) بدلالة (ب) ووفق ذلك، فإنَّ التكنولوجيا إذا كانت تخبرنا بأنَّ الإنسان (الكائن الحيّ) يُفترض أن يغلّف بوسائل خارجيَّة تكنولوجيَّة لحمايته من درجات الحرارة، والضَّغط والإشعاع المُميت، بحيث تحتويه في داخلها، كما هو الحال في البدلات الفضائيَّة والمركبات. فإنّ وسائل الحماية للكائن الحيّ المتوقّع أن تطوّره الطَّبيعة، أو المتوقّع اكتشاف وجوده لا يتمتّع بحماية خارجيَّة مماثلة. حسب هذا الاحتمال لا نتوقَّع أن يكون هذا الكائن مغلَّفًا بطبقة خارجيَّة ذات مواصفات تتحمَّل هذه الظروف المتطرِّفة كدرعٍ وقائيّ له، بل نتوقّع أنْ يكون تركيبه العضويّ مصمّمًا بشكلٍ اعتياديّ ليألف هذه الظّروف المتطرّفة.

ولِمَ نذهب بعيدًا؟ فأقوى الغوَّاصات الّتي ابتُكرت إلى الآن، وهي قادرة على أن تحمل كائنًا حيًّا بداخلها شأنها شأن المركبة الفضائيَّة، لا تقوى على تجاوز عمق (2000م) إلّا بضع مئات وربّما لوقتٍ محدودٍ جدًّا من شدَّة ضغط الماء الهائل عليها، بينما اكتشف العلماء أنَّ هناك آلافًا من الكائنات الحيَّة (تسرح وتمرح) في أعماق تتجاوز الـ (5000 م) فوق ذلك العمق يصبح الضَّغط قرابة النّصف طنّ على كلّ سنتمتر مربّع.

لو أردنا أن نتصوَّر وبالمنطق طبيعة أجسام الكائنات الحيَّة في تلك الأعماق السّحيقة، لتوجَّب أن نتصوَّر أنَّها ستكون مُحاطة بصَدفات قويَّة ودروع جبَّارة لمقاومة الضّغط؛ لكنَّنا نجد أنَّ الهياكل العظميَّة لتلك الكائنات هشَّة، وأنسجتها رخوة، كما أنَّ معظمها يتكوَّن من مادَّة هلاميَّة حيَّة، حتّى إنَّها أضعف تكوينًا من كثير الكائنات البحريَّة الّتي تعيش قرب سطح البحر، وهي ربَّما تكون مفارقة غريبة، إذ الواقع يعطينا خلاف

التوقّع المنطقيّ، وبالتأكيد، إنَّ للعلماء عددًا من التَّفاسير العلميَّة لهذا الأمر.

ومنها أنَّ تلك الكائنات لا تشعر بتلك الضّغوط، بل تحسّ بأنَّ كلّ شيء حولها على ما يرام، تمامًا كما يحسّ الإنسان على سطح الأرض، أنَّ كلّ شيء قد جاء لصالحه مع أنَّه يتعرَّض أيضًا لضغوط رهيبة من المحيط الهوائيّ الّذي يحيط به من كلّ جانب.

لكي يتَّضح ذلك نذكر أنَّ الهواء مثلًا يضغط على رؤوسنا، بما يُعادل الضَّغط النّاتج عن ربع طن، وأكتافنا وحدها تتحمَّل ضغطًا يُساوي نحو نصف طن، أمَّا الجسم فيتحمَّل ضغطًا يبلغ عدَّة أطنان؛ لكنَّنا مع ذلك لا نحسّ بشيءٍ غير عاديّ لأنَّنا نشأنا وتكيّفنا مع ضغوط المحيط الهوائيّ، ثمَّ إنَّنا نستنشق الهواء بضغطه، فيتخلَّل بكلِّ وعاء دمويّ ونسيج خليّة، وهكذا يتساوى الضَّغط داخلنا مع الضَّغط خارجنا. كذلك تفعل كائنات الأعماق فلقد نشأت وتكيّفت مع ضغوط الماء القويَّة، فالماء بضغوطه يتخلَّل في أوعيتها وأنسجتها وخلاياها فيتساوى الضَّغطان الخارجيّ والدَّاخليّ أو يتعادلان، ولو تَركت تلك الكائنات الأعماق واتَّجهت نحو الأعلى فإنَّها تنزف، وتنهار، وتموت.

نحن نتوقّع أنَّ الكائنات شبه الفضائيَّة أو الّتي قد يصحّ أن نسمِّيها اللّاكوكبيَّة، ستكون ذات بنية شبه رخويَّة، ومع هذا؛ فإنَّها تستطيع أن تتحمَّل تلك الظّروف الكونيَّة المتطرِّفة.

وإنَّنا حين ننظر إلى مقاربة كائنات الأعماق الّتي استعنَّا بها هنا، فإنَّنا نراها تتطابق تمامًا مع القاعدة (٣) من احتمالات قانون تضامر المعرفة، وهذا يعزِّز توقّعنا للملامح العامَّة للكائنات الحيَّة الّتي ستتطوَّر، وتُوجَد إنْ لم تكن موجودة أصلًا.

إنَّ قانون تضامر المعرفة يعمل وبالتَّكامل مع قانون تضامر الوجود لكي يؤسِّسا لطريقة جديدة في التَّفكير، طريقة تُحاول أن تقول بضرورة الانتقال من النَّظر بنظَّارة وحيدة إلى نظَّارة متعدِّدة، لا أقول نخلع نظَّارة ونلبس غيرها، لنرى الواقع بمنظار جديد، بل هي نظَّارة وحيدة تستطيع أن ترينا في الوقتِ نفسه الواقع بمستوياته المُتعدّدة، إنّهَا نظّارة تقول إنَّ الواقع ليس مقيّدًا بـ إمَّا هذه النَّظرة وإمَّا تلك، إمَّا نظرة ماديَّة وإمَّا نظرة دينيَّة، إما نظرة عقليَّة وإمَّا نظرة خرافيَّة، إمَّا نظرة منطقيَّة وإمَّا نظرة سفسطيَّة، إمَّا نظرة واقعيَّة وإمَّا نظرة مثاليَّة. وإلى ما هنالك من تقابلات مُتعارضة.

بل هي نظَّارة تحاول أنْ توضِّح نسبيَّة جميع النَّظرات، وإمكانيَّة صحَّة جميع النَّظرات ضمن دلالات محدّدة أو حدود مُعيّنة. إنّها تحاول أن تستلب من جميع النَّظرات إطلاقها على الجميع. هي ترى أنَّ كلّ نظرة مطلقة لكن على نفسها، وفي حدود افتراضاتها، جميع النَّظرات مطلقة؛ لكن إطلاق كلّ منها يُنسب لذاتها وليس لغيرها.

يمكن أن نوضِّح ذلك من طريق مقاربة حريِّة إبداء الرّأي، فحريّة كلّ منَّا مطلقة؛ لكن على نفسه، هو لا يستطيع أن يفرضها على الآخرين، وكما يُقال: حريّتك تنتهي حيثُ تبدأ حريّة غيرك. كذلك النَّظرات الفكريَّة والفلسفيَّة والدينيَّة وعمومًا المعرفيَّة، جميعها صحيحة نسبيًّا، لا توجد سلطة ولا هيمنة لإحداها على الجميع إلّا في وَهمْ المتوهّمِين ذلك.

هذه الفكرة هي الّتي يتناولها قانون التّضامر الثَّالث وهو **قانونُ تضامر الأجوبة**، وهذا القانون ينصُّ على:

[إذا وُجدَ جواب فيُوجد له عدد مفتوح من الأجوبة النهائيَّة المتضامرة بدلالة محددة].

وباختصار، فإنَّ مفهوم هذا القانون ينصُّ على أنَّ أيّ جواب لسؤال، يضمر القول بوجود أجوبة أخرى لا تماثله.

وهذا القانون هو تتويج للتّكامل مع القانونَين الأولَين، إذ لمّا كان الوجود متضامرًا والمعرفة متضامرة، فبلا شكٍّ ستكون نتائج مثل هكذا وجود ومعرفة متضامرة.

إنَّ هذا القانون يُحاول أن ينقل التفكير من الثَّبات على الأجوبة القطعيَّة الّتي تُحاول أن تفرض نفسها على النَّظرات الّتي لا تماثلها، إلى تقييد تلك القطعانيَّة في حدود النَّظرة، وإكسابها صفة الاحتماليَّة بالنِّسبة لغيرها. وبتعبيرٍ أوضح: كلّ نظرة هي قطعيَّة لنفسها احتماليَّة لغيرها.

هذا الفهم يفترض أن ينسحب على الأجوبة، كلّ جواب قطعيّ لذاته احتماليّ لغيره، ومن قبولنا بالاحتمال سنلتقي مع الآخرين في هذه المستوى وسنكتشف مضمرات أجوبتنا. وكما يقول كارل ريموند بوبر: «إذا ما ظهرت لك نظريَّة على أنَّها الوحيدة المُمكنة، فعدّ ذلك مؤشِّرًا على أنَّك لم تفهم النظريَّة، ولم تفهم المشكلة الّتي يفترض أن تحلّها هذه النظريّة».

والخلاصة:

إنَّ فلسفة التّضامر تُحاول أن توصل رسالة قصيرة مفادها: إنَّه إذا كان التفكير بطريقة اللَّحظة الزَّمانيَّة لا يوصل إلَّا إلى نظرات تناقضيَّة، أو أجوبة أحاديّة؛ فإنَّ التَّفكير بطريقة اللَّحظة اللازمانيَّة، أو التَّضامريَّة قد يوصل إلى الحلول التكامليَّة والأجوبة النهائيَّة.